حول أصول حركات الشكل ودلالاتها

الحلقة الخامسة :

أولا : حول إماتة الحروف الجوفية في اللغة العربية :

لقد انتهينا من الحلقة السابقة إلى أن الانسان العربي قد عمل على إماتة الحروف الجوفية (الألف اللينة والواو والياء) في ألفاظه لسببين :

ا – فقر أصواتها بالموحيات الحسية والشعورية ، فانصرف عنها ما استطاع لعجزها عن التعبير عن أحاسيسه ومشاعره الانسانية في معانيه المستجدة عبر مراحله الثقافية المتطورة .

ب – عدم استعذابه غوغائية أصواتها في لغته الشاعرية الراقية . وكان ذلك بترجيح شديد بفعل الشعراء أنفسهم .

ولقد اتبع العربي في ذلك كما لاحظ العلايلي ثلاث طرائق .

ا – بالاستعاضة عن الحروف الجوفية بحروف صامتة ، وفي مقدمتها الهمزة . بعضها قد أميت كما في (وخي) قد تحولت إلى أخي . وبعضها لا يزال حيا ، كما في (بئر من بير ، أحد من وحد ، أطم من وطم ، نشر من وشر ...) وذلك كثير.

ب – بالتضعيف كما في (نب) من نبي ، وبالحذف ، كما في (أب – أم – دم) من أبو أبوة ، أمو أمومة ، دمو دموياً ...).

ج – بتحويل الحروف الصائتة إلى حركات – كما أسلفنا في الحلقة السابقة – وذلك بدليل بقاء هذه الحروف في بعض الكلمات كتابة دون لفظ ، كما في (عمرو – أولئك) .

ولكن على الرغم من المحاولات المتنوعة لاماتة الحروف الغابية في اللغة العربية ، فإنها لاتزال تحتفظ بأهمية فائقة لايحظى بمثلها أي حرف عربي آخر ، وذلك في قطاعين لغويين اثنين .

الأول قديم سابق للمرحلة الرعوية الشاعرية قبل أن يعمل العربي على إماتتها ، هي قطاع حروف المعاني .

والثاني حديث من نتاج المرحلة الرعوية الشاعرية ذاتها ، هو قطاع حركات الشكل . ولكن لما كانت الحروف الزراعية الايمائية تشارك الحروف الغابية في تراكيب معظم حروف المعاني ، فإننا سنكتفي هنا بتوضيح علاقة معاني حركات الشكل

بخصائص الحروف الجوفية الثلاثة . أما الحديث عن حروف المعاني ، فسنؤجله إلى ما بعد الانتهاء من تحديد معاني بعض الحروف الزراعية الايمائية والرعوية الايحائية التي تشارك في تراكيب حروف المعاني موضوع هذه الحلقات .

فعملية تحويل هذه الأصوات الغوغائية إلى حركات ، لا ألطف على اللسان لفظا ، ولا أرق في السمع جرساً ، ولا أخطر على المعاني استعمالاً ، إنما هي أشبه ما تكون بعملية تحويل المادة البترولية الخام إلى مشتقات ، لاأنقى طبيعة ، ولا أشف منظرا ، ولا أخطر استعمالاً . وكل منهما كان قبل التحويل ، خاماً ، وغوغائياً .

ثانيا : حول دلالات حركات الشكل :

1 / الفتحة :

هي مخفف (الألف اللينة) . قد جعلها العربي في نهاية الفعل الماضي ، للاستقرار : (من مات فات) . كما جعلها في نهاية المفعول به للاستكانة والاستقرار . وذلك لأن صوت (الفتحة) في نهاية الكلمة يلفظ بأخفض نبرة ، مما يجردها من كل فعالية ، على العكس مما وقعت في أول الكلمة أو وسطها . وقد لحظنا آنفا أن الألف اللينة في نهاية حروف (لا . ما . كلا) تشير إلى مواقف الرفض والنفي ، ضرباً من الثبات والاستقرار .

وقد استثمر الانسان العربي خصائص الاستكانة والاستقرار والثبات في حركة الفتحة ، فجعلها في نهايات الأسماء المنصوبة بما يناسب أغراضها . قد جعلها علامة نصب المفعول (به ، وفيه ، ومعه ، والمطلق) ، والمنادى ، والمستثنى بإلا ، والتمييز لأنها تتحمل جميعاً فعل الفاعل إما مباشرة ، وإمَّا بصورة غير مباشرة ، بواسطة حرف أو فعل محذوف مقدر .

أما الحال ، فقد نصب بالفتحة ، إما لوقوع الفعل عليه ضمناً بصورة غير مباشرة : (سرت والنهر) ، أو للثبات والاستقرار : (هذا الهلال طالعاً يقشع الظلام)

وفي كل الأحوال فإن هذه الأسماء المنصوبة لاتدل معانيها على فعاليات كيما ترفع بالضمة ولا على الاحتواء ، أو الامتلاك ، أو على حالات ذاتية فتجر بالكسرة ، كما سيأتي وشيكاً .

2 / الضمة :

هي مخفف صوت (الواو) قد جعلت علامة الفاعل والمبتدأ للفعالية ، وعلامة الفعل المضارع للاستمرار ، إرثاً عن خصائص (الواو) ووظائفها . ولا متسع هنا للاستمرار في هذا المسار لتعليل رفع اسم كان وأخواتها أو نصب خبرها ، ولا العكس مع (أنَّ) وأخواتها ، وما يعمل عملها . وما أحسب أن تعليل ذلك سيكون أعسر ولا أغرب مما أتى به فقهاء اللغة العربية حول الكثير من إشكالاتها .

3 / الكسرة :

هي مخفف صوت (الياء) . قد جعلت علامة المجرور بأحد حروف الجر ليتحمل اعتداء الفاعل بواسطته : (سار على الطريق) . كما جعلت علامة جر المضاف إليه : للامتلاك (كتاب المعلم) أو للنسبة (دمع العين) ، أو للاحتواء : (سمك البحر) ، وذلك إرثاً عن خصائص الياء ووظائفها في الاحتواء والامتلاك والنسبة . ولم يخرج الغلاييني عن ذلك في تحديد وظائف الاضافة .

ثالثا : حركات الشكل و (عين) الفعل الثلاثي :

إن أبرع استعمال لحركات (الضمة والكسرة والفتحة) يتجلى في تحريك (عين) الفعل الثلاثي . فقد

بلغ العربي في هذا المضمار شأواً بعيداً من زهافة الأحاسيس والمشاعر ، في ترف لغوي لا نظير له .

1 – قد وكل إلى (الضمة) في عين الفعل الثلاثي مخفف صوت (الواو) ووريثها مهمة التعبير عن الفعاليات المنبثقة من الذات ، كما في (أدُب ، شرُف) نبُه . رزُل ، خبُث) فكانت أفعالها لازمة إطلاقاً لاكتفائها الذاتي وعدم حاجتها إلى أي مفعول .

2 – ووكل إلى (الكسرة) مخفف صوت (الياء) ووريثتها ، مهمة التعبير عن حالات وصفات ذاتية ، مما ينبغي معها أن تكون أفعالها لازمة لاكتفائها الذاتي ، كما في (آسِف . حزِن . حقِد . وحِل . درِد . سوِد .)

ولكن لوحظ أن قلة من الأفعال قد شذت عن هذه القاعدة وذلك لسببين اثنين :

ا – إما لأن معاني بعضها يدل على حركة باتجاه الذات ، كما في (لعِق ، لقِف . لغِف ، لهِم . عشِق)

وقريب من ذلك فعل (شكِل) لاتجاه هذه الفاجعة نحو ذات الوالدين حصراً .

ب – وإما لتصحيف في نقل حركة الشكل أثناء التدوين في بداية العصر الأموي ، كما في فعل (عدِم المآل) ، مما لايدل على حالة ذاتية . فكانت الفتحة أولى به ، كما سيأتي :

3 – ووكل إلى الفتحة مخفف صوت (الألف اللينة) ووريثتها ، مهمة التعبير عن الفعاليات المتجهة من الذات نحو الآخرين في الأفعال المتعدية . فحركة (الفتحة) في هذا الموقع إذا لفظت مفخمة ، كما كان العربي يفعل ذلك قبل المرحلة الشاعرية ، تمنح الأفعال مرتقى يساعدها على الاعتداء فيما إذا كانت مضامينها قابلة له ، كما في (أمَر . ضرَب . كسَر . دهَس ...) . أما إذا لم تكن قابلة للاعتداء فتظل لازمة كما في (أرَز . بقَع . بقَل . جنَح . حضَج . دجَن) .

وتأكيداً لهذا النهج ، فإن الفعل الثلاثي الواحد الذي حركت (عينه) بأكثر من حركة يلتزم معناه بما يتلاءم مع خصائص حركته ، كما في (أصل) .

فإذا حركت (عينه) بالفتحة كان متعدياً (أصَل الشَيء) استأصله . وإذا حركت بالكسرة دل معناه على حالة ذاتية وكان لازماً (أصِل اللحم) فسَد . وإذا حركت بالضمة كان لازماً ويدل على فعالية منبعثة من الذات : (أصُل النسب) . شرُف . وكذلك الأمر في (لحم) بالفتح والكسر والضم : لحَم الشيء لأمه – ولحِم بالمكان نشب – ولحُم الرجل ، كثُر لحمه .

وكما في معاني الأفعال التالية بتحريك (عينها) بالفتح أولاً وبالكسر ثانياً : (أكَل الطعام ، مضغه ، وبلعه – أكِل الرجل ، أكل بعضه بعضاً – أشَر الخشب ، نشرها – أشِر ، مرح وبطر – لسَن فلاناً ، عابه – لسِن – فضُح – لعَسه – عضه – لعِست الشفة ، اسود باطنها – عَرق العظم ، أكل لحمه – عرق ، رشح جلده – لفت الشيء ، لواه – لفِت الرجل ، حمق – عفص يده ، لواها – عفِص الطعام كان فيه مرارة وتقبض) .

وهكذا نستطيع اليوم أن نصحح الكلمات التي أصابها التصحيف أثناء التشكيل في تحريك (عين) الفعل الثلاثي بالرجوع إلى هذا النهج ، كما في (عقم) .

فقد ورد في المعجم الوسيط (عقمت المرأة والرجل (بالفتح) ، كان بهما ما يحول دون النسل . ويقال ، عقم الله المرأة والرجل ، جعله عقيماً) . كما ورد فيه أيضاً : (عقمت المرأة والرجل (بالضم) ، عُقماً فهو عقيم وهي عقيم ...) .

وبالرجوع إلى القرآن الكريم ، لوحظ أن مشتقات هذا الفعل قد اقتصرت على المصدر (عقيم) في أربع آيات فقط .

وإذن لاحرج في أن نقول بأن الأصح أن تحرك عين (عقم) بالفتح للتعدية : (عَقمه الله وعَقمها) . وإن تحرك بالكسر لمعاني العقم الحسية والمجازية وليس بالضم . وذلك لان العقم عجز ذاتي وحالة ذاتية ، تتوافقان مع خصائص الحركة الايمائية في الكسرة إرثاً عن (الياء) الغابية كما أسلفنا . فالعقم ليس فعالية ذاتية كيما تحرك عينه بالضم . وهذه الظاهرة من التصحيف غير نادرة في اللغة العربية .

فباستعراض الأفعال الثلاثية التي تبدأ بالهمزة في المعجم الوسيط عثرنا على (155) فعلاً كان منها (7) أفعال حركت عينها بالفتح والكسر لذات المعاني ، وكانت لازمة جميعاً . وهي ((أبَق – ازِمَ – أسِنَ – أفِرَ – أفِقَ – أقِلَ – ألِبَ .) .

ونرى أن مايدل معناه فيها على حالة ذاتية يكتفى بتحريك (عينه) بالكسر فقط وهي ((أسِن الماء ، فسد ، أفِر ، نشط – ألِبَ الجرح – برىء ظاهره دون باطنه فانتفض)) . وأن تحرك (عين) الباقي بالفتح فقط : ((أبَق – هرب – ازَم على الشيء ، عضه – أفَق ، ضرب في الآفاق – أفَل النجم ، غاب) .

وكان ثمة فعل واحد حركت عينه بالحركات الثلاث ، هو (انس) لذات المعاني : ((أنِسُ به ، فرح – انس إليه ، سكن إليه وذهبت به وحشته)) .

ونرى أن يكتفى بتحريك (عينه بالكسر فقط ، لأن معانيه جميعاً تدل على حالات ذاتية وليس على فعاليات ذاتية .

وبالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرنا على / 188 / فعلاً ثلاثياً تبدأ بحرف (اللام) و (67) تبدأ بحرف (الثاء) و (210) تبدأ بحرف (العين) .

وبدراسة معاني هذه الأفعال على واقع حركة عينها ، حصلنا على نتائج مشابهة لما لحظناه مع حرف (الهمزة) ، مما يؤكد صحة ما أسندناه إلى حركات الشكل من الوظائف اللغوية . فما حركت (عينه) بالضم كان لازماً ويدل على فعاليات ذاتية . وما حركت (عينه) بالكسر كان معظمه لازماً ويدل على حالات ذاتية – أما المتعدي منها فكان معظمه يدل على حركة باتجاه الذات ، وقلة منه كان مصحفاً . وأما ما حركت (عينه) بالفتح فكان معظمه متعدياً .

ولقد ذكر الغلايني في كتابه (جامع دروس اللغة العربية) ، خصائص الضمة والكسرة في (عين) الفعل الثلاثي ، بما يقارب ما عرضناه آنفاً . فمضموم (العين) كما لاحظ يدل على الغرائز والطبائع الثابتة وهو لازم إطلاقاً . أما مكسور العين فهو يدل على أمراض وعيوب وألوان مما يدخل في نطاق الحالات الذاتية) ومعظمها لازم .

ولكن الغلايني لم يتعرض لحركة الفتح ، ولم ينتبه أيضاً إلى العلاقة بين خصائص الضمة والكسرة الموروثة عن خصائص (الواو والياء) ، وبين معاني الأفعال الثلاثية ، على وجه ما بيناه آنفا .

وهكذا استسلم الغلايني للتراث سيراً على نهج من سبقه من علماء اللغة وأصحاب المعاجم في تحديد حركات (عين) الفعل الثلاثي ، دون أن يعير مسألة التصحيف فيها أي انتباه .

فبما أن الكتابة العربية لم تعرف الشكل حتى ما بعد جمع المصاحف في عهد الخليفة (عثمان) على يد الفراهيدي فإن شكل (عين) الفعل الثلاثي على السماع ، من المحتمل أن يكون قد تعرض بعضه إلى

التصحيف وإني لأتساءل :

أولا تستحق هذه الظاهرة اللغوية المزيد من اهتمام المجامع اللغوية وعنايتها ؟

وهكذا باعتماد الانسان العربي هذه الحركات المتأنية عن الحروف الجوفية الثلاث في ضبط التلفظ بأصوات حروف كلماته بمعرض تحديد صيغها ووظائفها ومعانيها ، تكون جذور هذه الحروف قد تغلغلت إلى كل شاردة وواردة في فصحانا العربية ، مما يمنح شخصياتها قوة فائقة وينهض بها إلى أرفع المقامات .